جامعة تكريت

كلية العلوم الإسلامية

قسم العقيدة والفكر الإسلامي

محاضرات مادة التصوف والأخلاق

المرحلة الأولى

المحاضرة السابعة

مقامات العارفين:

إعداد

د. عبدالله نجم عبدالله

مقامات العارفين:

اولا الفرق بين المقام، والحال.

فبيِّن أن المقَّام يقصد به مقام العبد بين يدي الله ـ تعالى ـ فيما يقام فيه من العبادات

والمجاهدات والرياضات.

أما الحال فيقصد به ما يحل بالقلوب، أو تحل القلوب به من صفاء نفسي، واطمئنان قلبي، وراحة ذهنية، سببها التقرب إلى الله ـ تعالى ـ بالأذكارالمشروعة.

نتحدث فيه عن بعض المقامات

مثل: مقام التوبة، والورع والزُّهد، والفقر، والصبر،

والتوكل، والرضا. ومن الأحوال: حال المحبة، والخوف، والرجاء. ووضح أن مَنْ التزم

الكتاب والسُّنة في أدائه للمقامات والأحوال فهو صوفي سُنِّي، لأنه يزن أفعاله وأقواله

بمعيار الكتاب والسُّنة. وبهذا يفرق بين أنواع التصوف المختلفة. وبهذا المعيار ترد

المعاني النفسية والأخلاقية، والسلوكية الناتجة عن المقامات والأحوال إلى القرآن الكريم، والسُّنة النبوية الشريفة.

للصوفية مقامات وأحوال، والمقام هو مقام العبد بين يدي الله تعالى فيما يقام فيه

من العبادات والمجاهدات والرياضات.

وأما الأحوال فيعنى بها ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار

وليس الحال كما يقول الطوسي في طريق المجاهدات والعبادات.

وجميع مقامات الصوفية وأحوالهم التي هي موضوع التصوف نجدها مستندة إلى شواهد في القرآن الكريم مما يدل على أن للتصوف جذوراً مستمدةً من القرآن، وسوف ندلل على كل مقام نقوم بذكره بآيات من كتاب الله العزيز. وقد سئل أبو بكر الواسطي عن (قوله :الأرواح جنود مجندة)

"، فقال: مجندة على قدر المقامات مثل: التوبة والورع والزهد والفقر، والصبر والرضا والتوكل، وغير ذلك"

. ١- مقام التوبة:

وهو أول مقامات المنقطعين إلى الله تعالى، والتوبة هي الرجوع من كل شيء ذمه

العلم إلى كل شيء قام بمدحه.

ذكر أهل التصوف أن السالك لطريق الله أو الحق يجب أن يبدأ بمنزل أو مقام،

وأول هذه المقامات هو مقام التوبة، وهو بداية الطريق، ثم يتدرج منها إلى الزهد والفقر

والصبر والشكر وغيرها، وهي أصل كل مقام. وللتوبة شروط كما يذكرها لنا الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) وهي:

[١ [الندم.

[٢ [وترك المعصية في الحال.

[٣ [والعزم الأكيد، والنية الصادقة على عدم فعل الذنب في المستقبل

(١)

.

(٢ (سئل الجنيد عن التوبة فقال: "هي نسيان ذنبك"

، وهو في هذه الحالة قد أجاب

عن توبه المتحققين، الذين لا يذكرون ذنوبهم لما غلب على قلوبهم من عظمة الله تعالى،

ودوام ذكره.

إن الله يقبل توبة العبد، وذلك يعطيه الفرصة لتغيير مسار سلوكه إلى ما هو

(٣ (أفضل، يقول الله تعالى:

، ولا تقبل التوبة عند الموت، يقول

.

(٥ (يمكن القول إن التوبة تتعلق بأمور ثلاثة هي العلم والحال والفعل

، والعلم

هنا يعني المعرفة بقدر الذنوب. فنحن عندما نريد أن نتوب عن فعل أمر معين بعد

ارتكابه، فإن التوبة تتم بعد نتيجة هذا الفعل الذي ارتكب، ومدى الضرر الذي تسبب

في وقوع هذا الفعل.

ثم يعقبها الندم الذي يدفع بصحابه إلى حال أخرى لها تعلق بالحال والمستقبل

والماضي. ومعنى ذلك أن يترك المعصية في حالة علمه بأنها سوف تقوده إلى المهالك.

وتوبته هنا أن لا يعود إلى هذه المعصية إلى آخر العمر، ويكون له عزم أكيد للعمل على

التخلص من تلك المعصية.

والتوبة هي الندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار بأن لا

(١ (يعود التائب إلى الذنب

١- مقام الورع:

ثم يأتي بعد مقام التوبة مقام الورع، فقد قال النبي :ملاك الدين الورع، وخير

دينكم الورع ، فالورع ملاك الأمور، والتواضع براءة في الكبر وأهل الورع - كما ذكر

الطوسي في اللمع ثلاث- طبقات:

فمهنم من تورع عن الشبهات التي اشتبهت عليه ما بين الحرام البين والحلال

البين، وفي هذا القول يعني الطوسي أنه إذا رابني شئ وشككت فيه تركته في الحال.

ومنهم من يتورع عما يقف قلبه، ويحيك في صدره عند تناوله. وهذا لا يعرفه إلا

(٢ (أرباب القلوب. وهو كما روي عن النبي أنه قال: "الإثم ما حاك في صدرك

". وأما

الطبقة الثالثة في الورع فهم العارفون والعابدون، وهو كما عبر عنه أبو سلمان الداراني:

"كل ما شغلك عن الله فهو شؤم عليك".

ومن هنا يتضح لنا أن الورع في هذه الطبقة الثالثة أن تتورع عن أن لا ينشغل

قلبك عن الله عز وجل طرفة عين، فالأول كما يقول الطوسي هو ورع العموم، والثاني

(٣ (هو ورع الخصوص، والثالث هو ورع خصوص الخصوص

.

يتضح لنا أن مقام الورع هو من أعمال القلوب، وهو من ثمرات الإيمان الكامل،

وهذه الأعمال واجبة على جميع الخلق، فنحن نعرف أن الإنسان المؤمن إيماناً خالصاً

يتورع عن فعل أي شيء يشعر أن به ضرراً ومساساً بعقيدته، ويخالف به كلام الله

سبحانه وتعالى وطاعته، ولذلك فهذا المقام هو مقام عام خوطب به كل البشر. وكل من

يخشى الله ويخافه يعمل به.

١- مقام الزهد:

وهو المقام الثالث من المقامات التي تأثر بها الصوفية الذين يزنون تصوفهم

بالكتاب والسنة، وهو مقام الزهد.

والزهد كما عرفه الغزالي هو عزوف النفس عن الدنيا، وانزواؤها عنها طوعاً مع

(١ (القدرة عليها والرغبة في الآخرة

.

ويقول الطوسي

في هذا المقام: "هو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل

والمنقطعين إلى الله تعالى، والراضين عن الله، والمتوكلين على الله تعالى، فمن لم يحكم

أساسه في الزهد لن يصبح له شيء مما بعده، ولأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد

(٣ (في الدنيا رأس كل خير وطاعة"

.

ويقسم لنا الطوسي الزهاد إلى ثلاث طبقات: فمنهم المبتدئون، وهم الذين خلت

(٤ (أيديهم. من الأملاك، وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم وسئل السري السقطي

(رحمه

الله) عن الزهد فقال، "أن يخلو قلبه مما خلت منه يداه"، وفرقة منهم متحققون في الزهد،

وهم الذين تركوا حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا، لأن الزهد من الراحة والثناء

والمحمدة، واتخاذ الجاه عند الناس.

والفرقة الثالثة هم الذين علموا أنه لو كانت الدنيا كلها ملكاً حلالاً لا يحاسبون عليها

في الآخرة، ولا ينقص ذلك مما لهم عند الله شيئاً، ثم زهدوا فيها الله عز وجل لكان

الثالث الهجري.

بزهدهم في شئ منذ خلقها الله تعالى ما نظر إليها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح

بعوضه ما سقى الكافر منها شربة من ماء، فعند ذلك زهدوا في زهدهم، وتابوا من

(١ (زهدهم فهذه الفرقة تزهد في الزهد

.

ولكن لي سؤال خفيف في هذا السياق، وهو أن هذا الزهد يعني أن الدنيا لا شئ.

فهل صحيح فعلاً أن الدنيا لا قيمة لها بحيث يجب الانقطاع عنها كلياً؟ والمعروف أن

الرسول كان يزهد في الدنيا، ولكن هل كان زهده بالمعنى نفسه؟

فحياة النبي ،قبل نزول الوحي كانت تنطوي على الزهد والتقشف والانقطاع

والتأمل كما هو حاصل عندما كان يتعبد في غار حراء قبل شهر رمضان، والاشتغال بذكر الله والبعد عن مناجاه الخلق.

(٢ (يقول السهروردي في كتابه: (عوارف المعارف)، قال يحيى بن معاذ

رحمه الله: الوحدة الصديقين، ومن الناس من ينبعث في باطنه داعية الخلوة

وتنجذب النفس إلى ذلك، وهذا أتم وأكمل وأدل على كلام الاستعداد، وقد روي من

حال الرسول ما يدل على ذلك.

أما عن حياته بعد نزول الوحي فكانت أيضاً متصفة بالزهد والتقلل من المأكل

والمشرب، وحافلة بالمعاني الروحية، وقد كان زهد النبي زهداً اختيارياً.

يقول الدكتورمحمد حسنين هيكل في كتابه (حياة محمد)، لم يكن هذا الزهد ولا هذه الرغبة عن الدنيا تقشفاً، ولا كان في فرائض الدين، فقد جاء في القرآن الكريم

، "كلوا من طيبات ما رزقناكم"، وفي الأثر "إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً

(٢ (وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً"

وليس من شك في أن النبي كان المثل الأعلى للمسلمين جميعاً بما

فيهم الصوفية لقوله تعالى: ولكم في رسول الله اسوة حسنة

ودعا النبي إلى الزهد فقال "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي

(٤ (الناس يحبك الناس"

وقال كذلك: "إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فقهه في الدين، وزهده في الدنيا،

وبصره بعيوبه". وعرف النبي بحسن عشرة الناس، وقد وصفه علي بن أبي طالب في هذه

الناحية، فقال: "كان أوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة (لين الخلق)

وأكرمهم عشرة، وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم ويحادثهم، ويلاطف الأطفال الصغار،

ويجيب دعوة من دعاه، ويعود المرضى.

ومن هذا الحديث نستخلص أن الرسول □ في زهده لم يكن مبتعداً عن أصحابه،

ولا عن الدنيا وما تحويه من اهتمامات أخرى، أي بمعنى أن الزهد عنده ليس هو انقطاع

كامل عن الدنيا والبعد عن المجتمع، والنبي □ لم يكن ينقطع كليةً عن الدنيا، فقد كان

يجتمع بالناس، وبأسرهم ولكنه على الرغم من هذا كان يزهد ويتقشف، وهو الذي أوتى

مفاتيح الدنيا، يزهد بالقدر الذي يتيح له أن يتفكر في الله وفي عبادته، والتأمل في ذاته وصفاته. ويؤثر عن النبي □ بالإضافة إلى ما ذكر، أقوال كثيرة حافلة بالمعاني التي

استنبطها الصوفية فيما بعد وطوروها في شكل نظريات ذوقية قائمة على أساس المعاناة

والخبرة المباشرة.

(١ (والزهد كما ذكره الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين)، هو رأس المنجيات، ومن أشرف المقامات، ويختلف الزهد عن الفقر، فإذا أنزوت الدنيا عن

(٢ (العبد سمي ذلك فقراً، وإذا أنزوى العبد عن الدنيا سمى زهداً

، والخلق السليم يتوجب الطمع حيناً والزهد حيناً آخر.